شفعاء يطلبون لهم ، لكن خاب ظنهم فى هذه وفى هذه .

فالمعنى ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أى : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾

وهذه الآية تعنى أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَلَ من واقع حياتهم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

هل يستوى عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين ؟

ثم يُقرِّب المسألة بمثَل من الأنفس ، وليس شىء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم]

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون فى هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة فى حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

والمَثَل يعنى أنْ تُشبِّه شيئاً بشىء ، وتلحق خفياً بجلى ، لتوضحه وليستقر فى ذهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذى أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟ فصارت مثلاً يُقال فى مثل هذه المناسبة مع أنه قيل فى حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة .. الخ لأن حاتماً الطائى صار مضربَ المثل فى الكرم ، وعنترة فى الشجاعة . وفى المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم فى التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وليس معنى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أى : فى الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلَى ، لكن المراد ما فوقها فى الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات .. الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس .. الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شيء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدى مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطن إليه الشاعر ،

فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوف القَدَرِ   بنفسِـــكَ تعنــف لاَ بــالقَـــدرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْـرةً بالعصَا   ضربتَ العَصَا أمْ ضـربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضـرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حسَّ الألم من الضرب ، فـإذا لم يحسّ الإنسان بضـرب المثل فهـو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المـادى ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسّ .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمـثال ودلائل لا يمكـن لأحد إلا أنْ يستـقبلـها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور]

والمثَل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهـو سبحـانه يُنوِّرك حِـسِّياً بالشـمس وبالقـمـر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

فـفائـدة النور الحـسـى أن يزيل الظلمـة ، وأنْ تسـيـر على هُدى وعلى بصيـرة فتسلم خطاك واتجاهك مـن أنْ تحطـم ما هو أقـلّ منك أو يحطمك مـا هو أقوى منك ، والمحـصلة ألاَّ تضر الأضـعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كـذلك النور المـعنوى ، وهو نور القـيم والمنهج يمنعك أنْ تضـرَّ غـيرك ، ويمنع غـيـرك أنْ يضرَّك ، وكـما ينجـيك النور الحـسى من

المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبي تمام(١) لأحد الخلفاء :

إقْدامُ عَمرو فى سَمَاحةِ حَاتمٍ ... فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَه ... مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ(٢)

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُوره ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ(٣)

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التى معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعنى أنه ارتجلهما لتوِّه . وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد بل : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] أى : جديدة ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فيتهمون الرسل

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والبأس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كُوَّة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قراننا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فى بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس فى أنه لم يُجبهم إلى الآيات التى اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التى كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً.

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت فى جدل لا يجدى ، ثم إن فى إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجىء الآيات يعنى أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم فى طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة فى جدل إبراهيم - عليه السلام - مع النمروذ فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة أمد الجدل ، ويريد تضييع الوقت فى أخذ وردّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة - مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة - وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب في حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففي كل موقف كان يقول : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) ﴾ [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ في أسلوب الآية صيغة الإفراد في ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع في ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿ إِنْ أَنتُمْ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعني : كل الرسل ﴿ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] أي : كاذبون تختلقون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا في رسول الله حين فتر عنه الوحي فقالوا : « إن رب محمد قلاه »[2] .

---

(١) بَهِتَ : دهش وتحير . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور في لسان العرب - مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلي قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] رواه البخاري ومسلم . وفي رواية قال جندب : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . قاله ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وهم لا يدرون أن الوحى كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه فى بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملك : « وضمنى حتى بلغ منى الجهد »[1] .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله فى صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو فى مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان[2] .

إذن : مسألة فتور الوحى وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحى حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحى من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبة على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل المشاقّ فى سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذى يسير إلى محبوبه

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/٢١) : « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبى هريرة .

فلا يبالى حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

والوحى لقاء بشرى بملكى ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة المَلَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث فى بداية نزول الوحى فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحى .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] أى : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

فعجيب أنْ يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذى نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحى ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الروم] أى : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾ [الروم] أى ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ فى هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق - سبحانه وتعالى - ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبى له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم فى محبة الحزن وعشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم أن تدعوا باب الحزن موارباً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أعِنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا فى هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التى تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التى تثبت صدْق الرسُل فى البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات ؛ لأن مُلْكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم فى هذه

المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذِّبين يا محمد ، واثْبُتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾

اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله ؛ لأن العاقبة في صالحك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ۝٦٠ ﴾ [الروم] وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة ، ووَعْدُ الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء في سبيل الدعوة ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤْذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبدأ الحق يضحي أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً

واشتـرى ذممـهم ، وإلا فـماذا يلجـئه إلى مـبدأ باطل ، ويحـمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنًّى بأشـياء فوق هـذه الدنيا يؤمن بهـا ويعمل من أجلهـا ، فتـهون علـيه نفسه ، ويهون عليه ماله فى سبيل هذا المبدأ .

وفى رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تـهزُّ الناس ، وكأن الشـدة غربال يمـيز هؤلاء وهؤلاء ، حـتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقـوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فـالله يقـول لنبـيـه : اصـبـر على تكذيبـهم وعلـى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييـد حين جـاهروك فانتصـرت على جهرهم وبيَّـتوا لك فى الخـفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واسـتعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فـاطمـئن ، فنحن لهم بالـمرصـاد ، ولن نُـسلْمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب فى الدنيا ، وتراه بعينك ، أو فى الآخرة بعـد موتك : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ومن هذا العقـاب الذى نزل بهم فى الدنيا ورآه سيـدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأسْـر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه ومـا أدراك ما عمـر ، فقـد كان القـرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب وقال : أيُّ جـمع هذا الذى سيُهزم ، ونحـن عاجزون حتى عن حـماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يتخلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التى تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] فاربط فعْلك بمشيئة الله التى تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغى أنْ تجزم بشيء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً فى المكان الفلانى ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شيء يعوقك عن الوفاء ، إذَن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب فى حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك فى الأمر .

فالوعد الحق يأتى ممَّنْ ؟ منَ الذى يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم] خف الشيء : لم يَعُدْ له ثقَل ، واستخفَّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتى آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفَّه مثل استفزّه يعنى : حرّكه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول فى مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك يعنى : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك .. متبقاش خفيف .. إلخ) ونقول للولد (فز) يعنى قفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] .. (٦٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذى هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك فى دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخِى العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرِج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون فى الدنيا ، والباقى سيرونه فى الآخرة .

والله يقول : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام على ـ رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ علمنا أنه ابتُلى بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

---

(١) أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ٢٥٧/١] .

« هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قَالٍ[1] »[2] .

ويروى[3] أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن على لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] يعنى : لن تُخرجنى عن ثباتى وحلْمى ولن تستفزنى .

والعظمة فى هذا الموقف أنْ يرد على لتوِّه بالقول الشافى من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو على بن أبى طالب الذى أُوتى باعاً طويلاً فى البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع ، فيصير عقيدة فى القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

---

(١) القِلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته قِلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

(٢) عن على بن أبى طالب قال : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به ، ألا وإنه يهلك فىَّ اثنان : محب مفرط يقرظنى بما ليس فىَّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا يُوحى إلىَّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/١٣٣) وعزاه للبزار وأبى يعلى الموصلى .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٤٠) من عدة طرق :
- من طريق قتادة . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .
- من طريق على بن ربيعة . رواه ابن جرير .
- من طريق أبى يحى . رواه ابن أبى حاتم .